الحياة في بيروت

على عهد الصليبيين

بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

قلنا ان امارة « باروت » الصليبية كان يحميها من جهة الشمال امارة جبله (جبيل) ومن جهة الجنوب امارة سايت (صيدا) . وكان البحر يمنعها من جهة الغرب . فلم يكن لاربابها ، والحالة هذه ، الا ان ينصرفوا لتحصين مقاطعتهم الفنيقية ، تلك المقاطعة التي اختصت بالسعادة على عهد الرومانيين فدعيت « بيريتوس فليكس » ، والتي عمل الصليبيون على تجميلها حتى اصبحت من اجمل مدن الساحل واوسعها ازدهاراً ، على قول ابن الاثير .

على ان اهتمام الصليبيين العسكري ، بل شغلهم الشاغل ، كان بان يحموا حدودهم الشرقيّة من غزوات عرب البقاع ، وتدخلات عساكر دمشق . واذا انحدرنا بضعة قرون ، نرى المشكلة نفسها تعرض للجنرال غورو على عهد فيصل . فالتاريخ يعيد نفسه . وما حدث في زماننا هذا ، حدث لثمانمائة سنة خلت ، اذ كان الصليبيون والمسلمون يتنازعون ارض البقاع الخصبة . وان لم يتمكن الفرنجة من الاستقرار في تلك الارض ، فلقد نجحوا بان جعلوا لهم حقاً بثلث محصولاتها ، وتسلطوا على الطرقات المؤدّية اليها من البحر . وقد كان لاتباعهم من الولاة اللبنانيين المعروفين بامراء الغرب كثير من القرى والمزارع في تلك السهول ، يستثمرها ابناء الجبل ، حتى امكن القول بحق ان في البقاع امراء لبنان ومدن الساحل .

اما مدينة دمشق فقد اذعنت ودفعت الجزية لفرسان الغرب . وكان للصليبيّين فيها ممثلون سياسيّون وتجاريون ، فضلاً عن الارصاد ورجال الخفية المكلّفين ان يطلعوا ارباب الساحل على جميع ما يُحاك من الدسائس وراء جبال انتيلبنان . ومما يجب الاشارة اليه ان امراء دمشق كثيراً ما كانوا يتحدون والفرنجة على جيرانهم من امراء الاسلام كنور الدين مثلاً . الا ان هذه الاتفاقات

الوقتية لم تمنع دمشق من ان تشتغل في الخفاء على هياج رعايا الامارة اللاتينية. وكان اسرع الاقوام تلبيةً لدواعي هذا الهياج دروز لبنان المتوسط. فكانوا يصيخون بالسمع الى همسات الدمشقيين، لا رغبةً منهم في الاسلام، بل اعتقاداً انهم يرون في دمشق عوناً لهم على الصليبيين. وكان بين العشائر الدرزية اسرة عربية شريفة، تتصل بقبيلة تنوخ، وهي اسرة بني بُحتُر، امراء الغرب، الحاكمة في منطقة الشوف الحالية. فرأى سادة «باروت» ان يستصفوا هؤلاء الامراء، وان يجعلوهم من خاصة رجالهم، فاقطعوهم الاقطاعات الواسعة في الجبل، على ان يقدّموا عدداً من رجال الحرب، ويضمنوا ضبط بلادهم والمحافظة على الامن فيها، ويردّوا عن الحدود هجمات الاجانب. فقبل امراء الغرب المقاطعات والاعانات. ولكنهم لم يفتأوا يدسّون سرّاً على الصليبيين، متفقين مع اعدائهم. وسنعود الى وصف هذه السياسة الملتوية «اللاعبة على الحبلَين»، كما يُقال، والتي لم تفقد تقاليدها في سورية حتى اليوم.

في سبيل تلافي هذه الاخطار، اعتزم بقدوين الثاني ملك اورشليم، في نحو السنة ١١٢٥، ان يبني حصناً على جبل گلاڤيان، في «ارض كافية الخصب، على ستة اميال من باروت.»[1] اما موقع هذا الحصن فنرجّح تعيينه في مرتفع دير القلعة قرب بيت مري. وهو مركز يوافق المسافة المذكورة، فضلاً عن انه يبرّر تسمية ذاك المكان «بدير القلعة» وهو اسم لم يشرحه احد حتى اليوم على طريقة اوفق من هذه. وقد تأكدنا، بما عرفناه عن بعلبك التي لا تزال خرائبها تدعى باسم «القلعة»، ان من عادة المحاربين ان يحوّلوا اسوار الهياكل القديمة الى حصون وقلاع. على اننا نرى في امر «دير القلعة» صعوبةً واحدة وهي ان تلك النواحي لم تشتهر بخصبها. ومها يكن من امر فاننا نظنّ ان الملك بقدوين لم يبنِ قلعةً كبيرة بل حصناً صغيراً. اما آثاره فلا شك انها دخلت، مع كثير من آثار الهيكل القديم، في بناء الدير الحالي وفي ابنية قرية بيت مري، حيث لا يزال بعضها يظهر حتى اليوم.

واذا استثنينا هذا الحصن، لا نجد ذكراً لايّ بناء او اية قلعة صليبية في

(1) راجع *Hist. Occident. des Croisades, II, 473*

الجبل ، داخل امارة بيروت . ولو كان شيءٌ من ذلك لما سكت عن الاشارة اليه صالح بن يحيي ، مؤرّخ امراء الغرب . على اننا نعرف في الساحل بضع قرى كالناعمة ، ومزدابية ، وجونية كانت محصّنة ، او على الاقل محاطة بالاسوار[1] . وذاك كي تتمكن من مقاومة القرصان وارباب المراكب المصرية.

اما العساكر التي كانت تحت تصرّف امير « بيروت » فكانت قليلة العدد ، ضئيلة الخطر . ولا شيء اعجب مظهراً ، ولا اغرب تركيباً ، ولا اقلّ وحدة وتآلفاً من جيوش الفرنج الشرقية . كل الشعوب وكل الديانات المتمازجة المختلطة في الشرق كانت تجد ممثلين لها في تلك الجيوش ، كما هي الحال تقريباً في ما ندعوه اليوم « بجيوش المستعمرات » . ولم يكن في تلك الفرق الا عدد قليل من الصليبيين بين قوّاد ومنظّمين . حتى يمكن القول ان الاطار كان وحده افرنجياً ؛ اما ما علاه من الانفار ، وصغار الضبّاط ، فكانوا من ابناء البلاد على اختلاف مللهم ونحلهم . وكان على امراء الغرب ان يقدّموا عدداً منهم لم يكن يتجاوز على ما نظنّ الثلاثين نفراً ، وهو العدد الذي فرضه بعد ذاك على الامراء انفسهم ؛ امراء بني ايوب وامراء المماليك ، كما يذكر المؤرخ صالح بن يحيي . ولا نرى ما يدفع الى الظنّ انهم قدّموا اكثر من ذلك الى امير «بيروت» الفرنجي.

اما سائر العسكر فكانوا من المسلمين المدعوّين « توركوبول » (*Turco-poles*) من شذّاذ الطرق والمتشرّدين تضيق بهم الحياة بين السكر واللهو ، فيؤجرون شجاعتهم ويحاربون في جيش من يضمن معيشتهم . وكان في تلك الجيوش ايضاً فريق من الارمن والموارنة . واذا ما حُمّ الخطر ، كان سكّان بيروت انفسهم ، يحملون السلاح ويشتركون والعسكر النظامي في الدفاع عن المدينة . وهو امر يفرض استعداداً عسكرياً وتدريباً حربياً . يشهد بذلك ما قام به السكان وحدهم ، سنة ١١٨٧ ، اذ قاوموا جيش صلاح الدين في غياب الحامية العسكرية ، فاوقفوه مدة ثمانية ايام[2] .

١) راجع بحثنا *Notes de Géographie Syrienne* [Mél. de la Faculté Orient. de Beyrouth, I, 248, 249]

٢) اطلب *Hist. Orient. des Crois.* I, 692

ومع انه لم يكن من تلك الجيوش فرقةٌ دائمة الّا حامية قلعة المرفأ القليلة العدد ، فان تكاليف العساكر كانت باهظة . على ان امراء « باروت » كانوا اغنياء لحسن الحظ . وكان من موارد خزائنهم الضرائب العادية ، والخراج المفروض على غير المسيحيين ، وبدل الطريق . وفوق كل ذلك كانوا يتكلون على رسوم التجارة المحلّية ، وواردات الجمرك . فنتج ان الصليبيين كانوا لا يألون جهدًا ، ولا يتراجعون امام اية تضحية في سبيل تعزيز علاقاتهم مع الدول الاجنبية . كانت مرافئ المملكة اللاتينية العظمى عكا ، فصور ، فطرابلس ، وكانت عكا في ذلك العهد تنازع الاسكندرية ، بل تنازع القسطنطينية نفسها. وكانت سائر مدن الساحل الفينيقي ، تنافس بيروت منافسة قوية لكون مرافئها افضل واوسع من مرفأ بيروت . على ان سياسة امراء « باروت » الرشيدة ودهاءهم المتواصل وجهودهم الدائمة جعلت لبيروت مركزًا حسنًا في تصدير البضائع الشرقية المطلوبة بالحاح في اسواق اوربة . من ذلك الحرير ، والكتان ، والقطن ، والزجاج ، والقاشاني . وان من هذين الصنفين الاخيرين آثارًا قويت على تقلّبات الاحوال فوصلت الى زماننا حيث تباع بالذهب ثقلًا بثقل . وكان من تلك الاصناف ايضاً الافاويه والابزار المتنوّعة ، والعقاقير ، والاطياب ، وسكّر القصب ، والقرفة ؛ وفوق كل ما تقدم البهار ، ذلك الصنف الذي بلغ من ارتفاع ثمنه في اوربة انه كثيرًا ما قام في العقود التجارية مقام النقد ، وان العروسات كنّ يتطلبن ، في جملة مطاليبهنّ ، ان يجدنَ كيساً من البهار في هدية العرس[1] . ويشهد بنفاسة هذا الصنف وغلاء سعره اذ ذاك ما يذكره صالح بن يحيى من ان الجنويّة نهبوا للبنادقة المقيمين في بيروت البهار المخزون في خانهم . وقد بلغت قيمة المنهوب عشرة آلاف دينار[2] . وهو رقم يفيدنا في معرفة ما كانت عليه من الاهمية المعاملات التجارية في اسواق مدينتنا.

كان المركز الاول بين التجار الاوربيين في بيروت لاهالي جنوى او الجنويّة . وذلك ان اسطولهم كان قد ساعد على فتح المدينة فلزم ان يُقطعوا

١) Schaube, *Handelsgeschichte*, 163, 164

٢) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، ص ٥٨

ثلث ارضها وان يعفوا من رسوم الجمرك ومن سائر المكوس . ولا يخفى ان الجمهوريات الايطالية في القرون الوسطى كانت ترى في الحركة الصليبيّة وجهتها الاقتصادية خاصةً . وكان الجنويّة من اعظم اولئك التجار سعياً في سورية ، ورغبةً في بسط معاملاتهم على جميع المناطق ، مما قد ننعته بالانانية والاستئثار لو كان من المعقول ان نطلب من التجارة صفات التجرّد والقناعة . وكان البنادقة قد استأثروا بالتجارة في القسطنطينية . فكان اذاً من مصلحة الجنويّة ، بل من حقهم على زعمهم ، ان يستأثروا بتجارة السواحل السورية ويقتصروا على كل منافسة . حتى لقد يمكننا ، اذا ما نظرنا الى هذا التطاحن الاقتصادي ، ان نصوّب اليهم ما قامت به « اميرة » ادمون رستان من لوم عنيف لاولئك الصليبيين الذين راحوا يفتشون عن الارباح المادّية فحسب ، اذ قالت[1] :

يا من تفتشون عن الارباح في فلسطين ، احملوا
على صدوركم ، لا اشارة الصليب ، بل رسم الدينار الذهبي .
انكم لتقتتون في الحروب الصليبية . وبئس ما تفعلون !
فان المجد للفرنجة في ذلك . ولكم الفائدة المادية .

على ان هذا الاستئثار بالتجارة الجانح الى الاحتكار الفعلي لم يكن ليروق امراء بيروت ، اذ كان يحدّد نطاق المعاملات في مدينتهم . فعملوا شيئاً فشيئاً على التخلّص منه بان اخذوا يسهّلون على البنادقة المعاملات التجارية في بيروت . وكان التجار الايطاليون يتمتعون ، في جميع مدن الشرق ، باستقلال يكاد يكون تامّاً عن السلطات المحلية . فقد كان لهم كنائسهم يخدمها اكليروسهم الخاص ، وخاناتهم الخاصة ، وحماماتهم ، وافرانهم الخاصة ايضاً . وكان يحكمهم اولاً رئيس منهم يُدعى الفيكونت ، ثم حلّ محلّه قنصل بلادهم ، الذي كان يفصل في المنازعات الناشبة بينهم ، فهو حاكم وقاضٍ معاً . الى غير ذلك من الخصائص التي كانت تؤلف « امتيازات اجنبية » تامّة ، قبل عهد فرنسوا الاول بثلاثة قرون . وكذلك كانت امتيازات تلك الجمهوريات الايطالية في الامبراطورية البيزنطية .

(1 E. Rostand, *La Princesse lointaine*, Acte II, scène 5

فكان ان الجنوية استفادوا من هذه الامتيازات ، واخذوا يعملون من جهتهم على تعزيز تجارتهم ، وعلى تقوية احتكارهم لاسواق سورية ، حتى دفعتهم « انانيتهم المقدسة » الى خنق التجارة الفرنسوية مع الشرق . فعقدوا ، في متوسط القرن الثاني عشر ، اتفاقات خاصة مع مرافئ جنوبي فرنسة كنوبيليه ، وارل ، وسان جيل ، ترمي الى حصر اعمال التجارة الفرنسويين بنقل زوار الاراضي المقدسة او الى اجبارهم على استئجار المراكب الجنوية . ولكن لم يطل الحال حتى اخذ اولئك التجارة يعملون على التملص شيئاً فشيئاً من هذه الشروط الشديدة . وقد ساعدهم امراء بيروت في ذلك ، فانالوهم الاعفاءات الجمركية واعطوهم الحق بفتح قنصلية في بيروت . وكان اول من استفاد من هذه الامتيازات اهالي مرسيلية سنة ١٢٢٣

ولقد كان من حق امراء الفرنجة ، وقد اغدقوا على الجوالي التجارية تلك الانعامات والامتيازات الكثيرة ، ان يطلبوا منها ان تقوم ببعض الواجبات . فكان على الجوالي ان تشترك والسلطة في الدفاع عن الاراضي المقدسة بحرياً وبرياً بمراكبها وبتن تعولهم على حسابها من العساكر . ولا يخفى ان هذا الامر كان يخفف كثيراً من تكاليف الجيش في الدول الفرنجية . فضلاً عن ان حركة التجار واستثمار اموالهم وتعداد مشاريعهم كانت من عوامل ازدهار المرافئ . ولقد استفادت بيروت من ذلك فائدة عظيمة حتى اصبحت « المدينة الوافرة الغنى » « *Opulentissima civitas* » كما يقول من زارها في ذلك العهد من امثال جان دي ويرزبورغ (Jean de Wirzbourg) . وكان هذا اللقب صدى لذلك اللقب القديم «المدينة الوافرة الجمال» « *Splendidissima civitas* » الذي منحه مدينتنا في القرن السادس ، الامبراطور يوستنيانوس العظيم ، والسائح البليزنسي المجهول الاسم .

***

كانت الضرائب التي سنتها الادارة البيزنطية ثقيلة الوطأة على سورية ، ولاسيا بعد ان اجتاحت اطرافها الحروب والغزوات الفارسية والبدوية مدة قرن كامل حتى انهكت قواها ، ثم جاء الفتح العربي . ومنذ ذاك الحين لا

اعلم هل من منطقة اخرى قاست ما قاسته سورية من استئثار الحكام بواردها الحيوية ، استئثارًا منظمًا واستغلالًا مرتبًا يجعل الحاكم او ممثليه ان يهتموا قبل كل شيء بما يحصلونه من المال وبما يتناولونه من « الطعمات ». وهذه الكلمة نفسها ، التي كانت جارية الاستعمال في الانشاء الاداري اذ ذاك ، تدلّ على ما نزل بسورية من مصايب الضرائب وجباتها ولاسيا منذ عهد العباسيين ، تلك « الدولة المباركة » ، كما كانوا يدعونها رسميًا . ولقد بلغ من هذا الاستئثار الفاحش ان احد حكام سورية ترك لبيت المال في بغداد ، عند انتهاء وظيفته ، مبلغ ٣٦٠'٠٠٠ دينار ، وهو مبلغ لا نبعد فيه عن الحقيقة ، اذا حولناه اليوم ، بالنظر الى القيمة الاصلية والى اختلاف اسعار المعيشة ، الى مبلغ ٣٦٠'٠٠٠ ليرة استرلينية . اما هذه التضحية المالية من قبل الوالي فكانت جارية تعرف « بالمقاسمة » وغايتها ان تجعل للدولة نصيبًا من ارباح الوالي فتسكتها ، وتبرر نوعًا ما يقوم به هذا من طرق غير مشروعة في جمع المال . على انها لم تكن لتفقر الوالي المذكور ، وقد حصّل اضعاف اضعافها . واذا انتقلنا من عهد العباسيين الى عصر الفاطميين نجد ان احد ولاة دمشق ، من متمردي الاتراك ، ترك بعد وفاته مبلغ مليون دينار . وقد بلغ ما وُجد من ثروة خاصة في خزانة آخر سلاطين المماليك ، على اثر انتصار سليم الاول ، مائة مليون دينار ، اكثرها نتيجة ما امتصه هذا السلطان من اموال السوريين حتى انه وضع المكوس على جامعي زبل البقر .

اما على عهد العثمانيين فلدينا تقرير لقنصلية البندقية من اواخر القرن السادس عشر ، يقول ان مقاطعة سورية كانت تباع في استانبول « بمئتين الى مائة الف دوقة » . وان « وظيفة الدفتردار (اي امين الصندوق العام) كانت تُشرى باربعين الى خمسين الفًا . ووظيفة القاضي ارخص قليلًا . وكان جميع الموظفين يعوضون في مدة قريبة كل ما يبذلونه في ثمن وظائفهم . فان الباشا كان يسلخ (*scortica*) كل المقاطعة ؛ والدفتردار يسلخ الامراء وموظفي المكس ، والقاضي يسلخ جميع من يقع تحت يده . » وكان الجزار ، التاعس الذكر ، يستخرج كل سنة من مقاطعة عكا عشرة ملايين فرنك لحسابه الخاص .

وقد « سحب » من امير لبنان وحده ٤٠٬٠٠٠٬٠٠٠ فرنك في خمس سنوات ، على قول ڤولني . ولم يبلغ ما جمعه في ولايته مدة خمس وعشرين سنة اقل من نصف مليار .

ويقرب من ذلك حالة سائر الولايات . فان عبدي باشا ، والي حلب ، جمع في خمسة عشر شهرًا ، كما يذكر ڤولني ايضاً ، « ٤ ملايين ليرة ، فارضاً الرسوم على جميع ارباب المهن حتى منظّفي الغلايين . » وان من عاشوا على عهد عبد الحميد يؤكدون ان هذه التقاليد ظلّت جارية في سورية . حتى يحملنا الظنّ ان في سورية نهرًا من الذهب جارياً دون انقطاع . والا فكيف احتملت الف سنة من الفوضى والنهب على جميع الاساليب . وقد تنسى سورية اليوم هذا الماضي المؤلم ، منصرفةً الى التأمل المحزن بصعوبات الحالة الحاضرة ، والى التشاؤم بالمستقبل ، غير منتبهة الى ان مصايب الحرب نفسها لم تفقرها الا جزئياً بالنسبة الى غيرها .

اما سرّ هذا الغنى فمصدره ، على ما نرى ، في موارد البلاد الطبيعية ، وفي مركزها الجغرافي ، وفي ما ورثه ابناؤها عن اجدادهم الفنيقيين من مقدرة على المعاملات التجارية ، وجلد في متابعتها وملاحقتها . وهم لا يطلبون ، في سبيل تحقيق هذه المقدّرات ، الا حكومة بصيرة مخلصة . وقد وجدوا هذه الحكومة في امراء باروت الصليبيّين .

كان اولهم الامير دي گين (Foulques de Guines) فابتدأ التنظيم . واتى بعده من اجتهد في متابعة عمله . الا ان هؤلاء لم يعرفوا حتى اواخر القرن الثاني عشر اذ انتقلت الامارة الى جان ديبلّن (Jean d'Ibelin) . كان هذا من اشرف ممثلي الفرسان النصارى في الاراضي المقدسة ، وكان سيّد ايبلّن (وهي يَبنيَة القديمة جنوبي يافا) وآصوف ، وكونت يافا والرامة ، ومن قوّاد المملكة اللاتينيّة ، وحاكم قبرص . على انه معروف خاصة في تواريخ الصليبيّين باسم « امير باروت الشيخ » ، وباروت المنطقة التي كان يفضلها على سائر اقطاعاته . وقد دافع عنها جهده عندما هاجمتها جيوش فريدريك الثاني . وهي مدينة له بازدهارها الاقتصادي ، اذ عرف ان يستدرج اليها تجار اوربة واموالها . وكذلك

رفع اسوارها ، ورمّم قلعتها واتمّ طرق تحصينها حتى جعلها من « اجمل قصور العالم » كما تقول « ملاحم القبرصيين » (*Gestes des Chiprois*) . وقد مثّل في ملاحم الصليبيين ، دور نسطور الحكيم في الالياذة ، فدعاه فيليب دي نوڤارا « المتكلّم الرائع الحكيم » . وكان فوق ذلك ، وقبل ذلك ، رجل عمل وجدّ تروعه عظمة الفنّ وفخامته ، فباشر ترميم بيروت على رغم التكاليف المادية الثقيلة ، لان المدينة كان قد خرب اكثرها على اثر فتح صلاح الدين الموقّت . وقد اشار هو نفسه الى ذلك بقوله : « لقد تسلّمت المدينة عندما استعادتها النصرانية ، وهي مهدّمة حتى ان التامبلية والاسبتالية وسائر امراء سورية تركوها . وقد اصلحتها واعدت بناءها بفضل صدقات النصارى وعملي انا . »

والآن ، أوَ ليس من الاجحاف بحقّ التاريخ ان لا نرى شارعاً في بيروت يحمل اسم هذا الامير العظيم ؟ . . .

وهناك جان دبيلن آخر نبغ من هذه الاسرة وعُرف بمقدرته الحقوقية عاملاً في تأليف المجموعة الشهيرة « بقواعد اورشليم » . وهو ابن اخ الامير الكبير ، ويدعوه : « عمي الشيخ امير باروت » . وقد ملك بعد الامير الشيخ المذكور ابنه باليان ، ثم حفيده جان دبيلن الثاني . ثم ورثت الامارة ايزابيل ابنة جان دبيلن الثاني . وقد تزوّجت اربع مرات ، ولكنها لم تُرزق ولداً ، فتركت الامارة والالقاب لاختها ايشيف التي اصبحت « سيدة باروت » . فاقترنت اولاً بهونفروا دي مونفور (Honfroi de Montford) . وقد حفظ صالح بن يحيى فرماناً اصدره هذا الامير سنة ١٢٨٠ باقطاع اقطعه امراء الغرب . وعلى عهد الاميرة ايشيف ، في شهر تموز ١٢٩١ ، سقطت بيروت في يد المسلمين .

وكان امراء بيروت الصليبيون يسكّون النقود . الا ان الامثلة التي وصلت الينا من نقودهم قليلة جداً ، واكثرها نحاسية ، عليها كتابات باللاتينية او الفرنسوية . وقد رُسم عليها من الجهة الاولى صليب ، ومن الجهة الاخرى باب او برج مُفرّض[1] . (لها صلة)

(١) اطلب في ذلك Schlumberger, *Numismatique de l'Orient Latin*, 118, 119